الشَّعبي... فقيه الكوفة الظريف

أسند الشيخ الهزيل ظهره. برفقٍ إلى أحد أعمدة مسجد الكوفة، تنحنح بهدوء، ثم رفع رأسه وراح يتفرَّس في وجوه الرجال الذين تحلَّقوا حوله وقد تعلقت أنظارهم بوجهه المنهك الذي بدت عليه آثار السنين وسيماء الساجدين الصالحين.

هيَّأ البعض قراطيسه، واشرأبَّ البعض الآخر بعنقه محاولاً الظفر بنظرة من خلال زحام الرؤوس، وصمت الجميع فيما عيونهم تلحُّ على الشيخ بالحديث.

بدأ الشيخ بإلقاء درسه، وكان حول أحكام الصوم. فقال: نُقل عن رسول الله ﷺ قوله: «تسحروا ولو أن يضع أحدكم إصبعه على التراب ثم يضعه في فيه».

صمت الشيخ برهة يلتقط أنفاسه، ثم همَّ باستئناف كلامه. فإذا برجلٍ من الجالسين يسبقه بالسؤال قائلاً: أيُّ الأصابع تعني؟ نظر الجُلَّاس بضيق إلى هذا السائل الذي بدت على مُحيَّاه سيماء الحمق وملامح البلاهة، وقد همَّ بعضهم بتعنيفه على هذا السؤال البليد، لكن الشيخ كان أسرع منهم جميعاً، فقد ابتسم وتناول إبهام رجله وقال: هذا.

فضجَّ الجميع بالضحك، فيما أطرق السائل خجلاً. هل عرفت من

هو هذا العالم الفَكِه الذي اشتهر بالظرف وحبِّ الدعابة ولطف المعشر؟ إنه الشَّعبي فقيه الكوفة وعالمها الكبير الذي أجاد التظرف والممازحة إجادته لعلل الحديث ومبهم القرآن ودقائق الفقه، فكان بحق من الشخصيات القليلة التي أنصفت الفقهاء ودفعت عنهم تهمة العبوس والتجهم التي يأبى البعض إلا أن يلصقها ظلماً بكل فقيه وعالم.

ولكن قبل أن نلج عالم الظرف والدعابة في حياة الشعب لنقترب منه أكثر ولنتعرف عليه فقيهاً وعالماً.

الشَّعبي الفقيه:

هو أبو عمرو عامر بن شَراحبيل، راوية من التابعين جليل القدر، وافر العلم.

ولد وعاش ومات في الكوفة (١٩-١٠٣هـ)، دأب في شبابه على ملازمة العلماء وارتياد مجالس العلم حتى نال نصيباً عظيماً من العلم والفقه معتمداً في ذلك على «صبر كصبر الحمام، وبكور كبكور الغراب، والسير في البلاد» على حد تعبير الشَّعبي نفسه[١].

وقد طار صيته في الآفاق حتى أصبح علماً من أعلام الفقه، ومضرب المثل في العلم والحفظ، وقد قال فيه ابن عيينة: «علماء الناس ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه[٢]». وتحفل كتب الطبقات والتراجم، ومراجع الفقه والعلوم الشرعية باجتهادات الشعبي وفتاويه الفقهية وشهادات معاصريه فيه.

---

(١) سير أعلام النبلاء: الذهبي: ١٢/٢٢٩.

(٢) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي: ١٢/٢٢٩.

أما الرواة ومصنفو الكتب الأدبية فقد كان لهم شأن آخر مع الشعبي. إذ شغلهم ما عُرف عنه من ظرف وحب للدعابة، فراحوا يتسابقون في جمع أخباره وتتبع نوادره وتدوينها في صدر كتبهم، فإذا نحن أمام رجلٍ خفيف الظلّ، ظريف الطبع، فكه الأخلاق، استحق أن يزاحم أعلام الفكاهة الرصينة في أدبنا العربي. فمن هو الشعبي الظريف؟

الشَّعبي الظريف:

«مزح الشعبي يوماً، فقيل له: يا أبا عمرو أفتمزح؟ قال: إن لم يكن هذا متنا من الغم[١]».

بهذه الكلمات المعدودة أوجز الشعبي فلسفته في الضحك والفكاهة، فالضحك ليس هزلاً يحطُّ من قدر الانسان، ولا عيباً يشين صاحبه ويُذهب بوقاره، بل هو حاجة فطرية لا تستقيم الحياة دونها، وما أقسى الحياة وأضجرها إذا لم تتخللها ساعات من الضحك والفكاهة يروِّح الإنسان بها عن نفسه، ويدفع ما يطرأ عليه من همٍ وغم. وانطلاقاً من هذا الفهم الإنساني للضحك مَزَحَ رسول الله ﷺ، ومزح الصحابة والتابعون والعلماء والفقهاء، بل كان منهم من نافس ظرفاء العرب فكاهةً ونادرةً كالأعمش، وابن سيرين، وفقيهنا الظريف الشعبي.

ويمكننا أن نقف على أخبار الشعبي ونوادره في عدد من كتب الأدب يأتي في مقدمتها: نثر الدر للآبي، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والمُراح في المُزاح لمحمد الغزي، وأخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي، والبصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، وغيرها.

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس للقرطبي: ٢/٥٦٨.

وإليك بعض ما اخترناه من نوادر هذا العالم الظريف:

- بينما كان الشعبي في مسجد الكوفة إذ أقبل رجل فقال: يا شعبي، إبليس كانت له زوجة؟ قال: نعم له زوجة، فقد قال الله عز وجل «أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو[١]» ولا تكون الذرية إلا من زوجة. قال الرجل: فما كان اسمها؟ قال: ذاك نكاح ما شهدناه.

- قيل للشعبي: هل تمرض الروح؟ قال: نعم، من ظل الثقلاء. قال بعض أصحابه: فمررت به يوماً وهو بين ثقيلين فقلت له: كيف الروح؟ قال: في النزع.

- سُئل الشعبي عن مسألة فقال: لا أدري. فقيل له: أما تستحي أن تقول لا أدري وأنت فقيه العراق؟ قال: لكن الملائكة لم تستحِ إذ قالت: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا[٢]».

- دخل الشعبي الحمَّام فرأى داود الأودي بلا مئزر، فغمَّض عينيه، فقال له داود: متى عُميت يا أبا عمرو؟ قال: منذ هتك الله سترك.

- كان الشعبي ضئيلاً نحيفاً، فقيل له: ما لنا نراك نحيفاً؟ قال: إني زُوحمت في الرحم (وكان الشعبي قد وُلد هو وأخ له في بطن واحد).

فتاوى فكهة:

الفُتْيَا وظيفة هامة، ومسؤولية دقيقة تتطلب علماً وذكاءً وسعة أفق.

والأصل أن يكون المستفتي جاداً في سؤاله، حريصاً على تحري الحكم الشرعي، ولكن قد يكون المستفتي في بعض الحالات عابثاً يرمي

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) البقرة: ٣٢.

بسؤاله إحراج المفتي، أو هازلاً لا يقصد إلا المزاح والهزل، أو ربما كان خفيف العقل، محدود الفكر، فيستشكل أموراً سخيفة لا طائل من ورائها، فكيف يكون رد المفتي في مثل هذه المواقف؟

ربما ينفعل بعض فقهائنا، فيعنِّفون الهازل، وينهرون العابث، أو يعرضون عن الجاهل الأخرق في غيظ، لكن الشعبي لم يكن من هذا النوع، بل كان يرد على السائل بجواب لاذع مسكت أكثر هزلاً وأمضى سخريةً معتمداً في ذلك على ما طُبع عليه من ظرف وذكاء وسرعة بديهة. ويعتبر الجواب المسكت باباً من أبواب الفكاهة في الأدب العربي، برع فيه عددٌ من ظرفاء العرب المعروفين من أمثال أبي العيناء، وأبي الحارث جُمَّين، وأبي نواس، والجمَّاز، بيد أن الشعبي كان من المتميزين في هذا الفن، فقد نأى بنفسه عن الأجوبة الجارحة البذيئة التي عُرف بها بعض رواد هذا الفن خصوصاً أبي العيناء، مؤسساً بذلك مذهباً خاصاً في الدعابة ينسجم ومكانته العلمية والفقهية على نحو ما نجده في هذه الفتاوى الفكهة:

- سأل رجلٌ الشعبي عن المسح على اللحية في الوضوء فقال: خلِّلها بأصابعك. فقال: أخاف ألا تَبُلَّها. قال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل.

- سأله آخر: هل يجوز لمحرم أن يحكَّ جسده؟ قال: نعم. قال: مقدار كم؟ قال: حتى يبدو العظم.

- سأله رجل فقال: هل أُسلِّم على القوم وهم يأكلون؟ فقال: إن أردت أن تأكل معهم فسلِّم.

- وسُئل الشعبي عن لحم الشيطان فقال: نحن نرضى منه بالكفاف.
وسأله آخر عن أكل الذُبَّان فقال: إن اشتهيته فكُله.

- مرَّ بالشعبي رجلٌ فقال له: أصلحك الله، إني كنت أصلي فأدخلت إصبعي في أنفي فخرج عليه دم، أترى لي أن احتجم؟ فقال الشعبي: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه إلى الحجامة.

وسأله رجل: ما تقول في رجل شتمني في أول يومٍ من شهر رمضان، أتراه يُؤجر؟ قال الشعبي: إن قال لك يا أحمق رجوتُ له ذلك.